

النزعات الكيانية في الدولة العثمانية" لعبد الرؤوف سنو

الحركات القومية فوقية وأبانية ليست نقيضاً

إبراهيم بيضون

منذ كتابه "المصالح الالمانية في سوريا وفلسطين (1841 – 1901)" والدكتور عبد الرؤوف سنو يخوض في الاشكاليات الصعبة، مؤرخاً في الغالب لمراحل انحدار الحكم العثماني وانحسار قبضته عن الولايات التابعة له، في وقت كانت اوربا مستمرة في نهوضها، من دون ان تغمض عينا عما يجري في السلطنة وحولها .. واذ يطل القرن التاسع عشر، تتبلور المعادلة الجديدة، فتصبح السلطنة "الشرقية" في مهب رياح العرب، تعصف حيث نشاء من البلقان الى مصر فالمغرب، مروراً بالشام والحجاز،.. وغيرها من اقطار لم يعد النفوذ العثماني فيها معبراً عن قوة الاخير، بقدر ما كان تصارع الدول الكبرى على اقتسام تركية "الرجل المريض"، مساعداً على استمرار هذا النفوذ، وقد تسرب حينذاك اليه وهن شديد، ولم يكون سوى الماضي ينبض في عروقة وينتشر في فضائه المبلد بالغيوم.

هذه المرحلة بتحولاتها الخطيرة، واكبها العديد من الدراسات والابحاث، بدءاً من "المسألة الشرقية" التي عبرت عن مشكلات الاقليات، وانتهاء بالثورة العربية التي اطاحت بامبراطورية السلطنة. ولكن ثمة مسائل لم يطرق بابها المؤرخون على هذه المساحة والكثير من الصفحات مازال مطويلاً ولا نعرف سوى القليل جداً عنه، من هذا المكان بالذات يطل علينا د. سنو بكتابه الجديد "النزعات الكيانية الاسلامية في الدولة العثمانية" منطلقاً من تلك المحطة المجهولة، فيسلط عليها الضوء، ويتوغل في خطوطها، ذاهباً في معاناته الى المدى الاقصى، بما يستحق مشقة الرحلة الطويلة، وهو ممن يعانون حقاً ولا يغادرون القلق عندما يكتبون، فلا تكون مقدماً اثناء قراءته على واجب ثقيل.

حركات فوقية

بهذا المزج تُقبل على كتاب د. سنو وهو عبارة عن خمسة فصول، تبحث من خلال مادة موثقة في اشكالية الهوية الدينية والوطنية لدى الفئات الاسلامية في سلطنة بني عثمان، اما البداية فانطلقتها من الحرب الروسية – العثمانية (1877 – 1878)، احدى اهم التداعيات في المرحلة والتي جعلت السلطنة تترنح امام الضغوط الخارجية، وتبدو معزولة عن رعاياها الذي اخذهم القلق على مصيرهم. اما سبب ذلك، وافترضا مع د. سنو فهو "عدم وجود وعي قومي اسلامي في البلدان موضوع البحث، باستثناء حالة البانيا، بالاضافة الى ان للمسلمين هناك، نخباً وقواعد شعبية، ظلوا متشبثين بالدولة العثمانية لأسباب استراتيجية اكثر منها اسلامية".

يرصد د. سنو النزعات الكيانية ذات البعد القومي.. في بلاد الشام والحجاز وكردستان والباينا، وهي بلدان تقع تاريخيا في دائرة الحرب الروسية – العثمانية السالفة، اي ان مساحة البحث لا تتعدى السنوات الخمس (1877 – 1881) مما يعني ان حركات هذه البلدان متصلة بالحرب في الزمان او في المحصلات. ومن ابرز ما اضافه الباحث في هذا السياق، محاولته الهامة في استكشاف اهداف ومحركات ونقاط الالتقاء والاختلاف لدى تلك النزعات الكيانية، فضلا عن الخلفيات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية لكل منها. ولكن نقطة الضعف فيها كانت مجرد حركات فوقية مرتبطة بالطبقة العليا ومصالحها، مفتقرة الى الاستقطاب الشعبي، ومرة ثانية باستثناء البانيا، ففي بلاد الشام كان الهاجس لدى المسلمين، هو الخطر الاجنبي المهدد للسلطنة، وهم جزء مستهدف منها. ولذلك كانت الحركة السياسية في هذه المنطقة، واستندا الى قول د. سنو، مندرجة "في إطار ثقافة اسلامية وتجربة تاريخية اسلامية ووعي بالانتماء الى دولة اسلامية" بمعنى آخر، ان فكرة الوطن عند المسلمين في بلاد الشام، لم تنفصل عن دار الاسلام، اي السلطنة العثمانية، ولعل معاهدة برلين 1877، اسهمت، برأي الباحث، في تهدئة مشاعر السوريين، اذ خرجت السلطنة منها بأقل قدر من الخسائر، مما يعني استمرار الاعتراف الغربي بها.

ولكن هذه الحالة لم تكن معممة، بالايقاع عينه، على الاقاليم العربية الخاصة للسلطنة، ففي الحجاز، ونتيجة لتدخل البريطانيين بوحى من مصالحهم الاستراتيجية التي دفعتهم الى الاهتمام بهذه المنطقة (طريق الهند)، لجأ هؤلاء الى محاولة فك الارتباط، اذا جاز التعبير، بين "الاشراف" والسلطنة، على ان هذه المحاولة اصطدمت بالخلفية الاجتماعية والثقافية لنخب الحجاز، وصعوبة تسويق فكرة "الدولة العربية" المنطلقة من فكرة استعادة الخلافة لقريش.. وخلافا لما هو شائع، لا يجد الباحث د. سنو اي دليل على بوادر وعي قومي حتى لدى الشريف بعد ذلك.

اما بالنسبة إلى حالة الاكراد، فلم يكن لانتفاضتهم ذلك البعد القومي على الرغم من تردد مصطلحي الوطن والامة في خطاب زعيمها الشيخ عبدالله النهري، ذلك ان التطور الثقافي – الاجتماعي – الاقتصادي في كردستان، لم يكن متوازيا مع فكرة "الوطن" في وقت كان ما يزال المجتمع اسير علاقاته القبلية. وتأکید لهذا الطرح فان الانتفاضة ركزت اثر وفاة الشيخ النهري، خصوصا بعد انخراط الاكراد في "الافواج الحميدية"، الموالية للسلطان. فقد كان الاخير يعمل انطلاقا منها على امتصاص النزعات القومية لدى الشعوب الخاضعة للسلطنة. كما ان الاكراد – والكلام هنا للباحث – جاء انصياهم للسلطان لأن "كانو يخشون قيام حكم ارمني مستقل في شرق الاناضول تحت الحماية الاجنبية، يقضي على طموحاتهم في انشاء كيان خاص بهم في المنطقة نفسها"

وحدها ألبانيا

وتبقى اخيرا الحالة المختلفة في البانيا، حيث يرى الباحث د.سنو ان ثمة محركات ثقافية واجتماعية بلورت المشروع القومي الالباني، باتجاه الاستقلال التام عن السلطنة، اما الاسباب الموضوعية، فمردها الى اقتطاع اجزاء من البانيا بموجب معاهدتي سان استيفانو وبرلين، لمصلحة كيانات محاطة بدعم اوروبي، الامر الذي أثار مشاعر الالبانيين ووجد تطلعاتهم وارادتهم الوطنية، بعد ان كان المسلمون متمسكين بالسيادة العثمانية بسبب حاجتهم الى هذه المظلة الاسلامية في محيطهم المسيحي – السلافي. وهو موقف نابع – برأي الباحث – من وعي استراتيجي بمشكلاتهم، قبل ان يكون تجسيدا لفكرة الرابطة العثمانية. وستبقى هذه النزعة الكيانية لدى الألبان في مواجهة استراتيجية مع الدول الأوروبية التي عارضت سابقا قيام كيان الباني مستقل في قلب البلقان، دون

ان تغيب هذه المسألة راهنا عن الدبلوماسية الاوروبية المعاصرة (مقاطعة كوسوفو الالبانية) والاسباب عينها تستعاد، كذلك المواقف والمواجهات خلال مسافة نيف وقرن من الزمن.

والمحصلة التي يراها د. سنو في كتابه الاخير، ومن خلال نماذج معينة من مناطق التفجر في القرن الماضي، هي ان المشاعر الاسلامية ظلت طوال ذلك الوقت (عهد السلطان عبد الحميد الثاني) متقدمة على الحوافز الوطنية او القومية، ولكن الحركة الطورانية بتحريض من جمعية الاتحاد والترقي التي قضت على عصر السلاطين الطويل، غيرت هذه المعطيات واخذت تتساقط العوائق امام وسائل التعبير القومي. وعلى سبيل المثال فقد اعلنت البانيا استقلالها في عام 1912 وبعد اربع سنوات قامت ثورة الشريف حسين في مكة، بدعم من البريطانيين، مجسدة لحين قصير آمال العرب في الاستقلال والدولة الواحدة.

هذه ابرز خطوط "النزعات الكيانية في الدولة العثمانية". عنوان كتاب الدكتور عبد الرؤوف سنو، والذي يشكل قراءة جديدة بالفعل لأحداث يلف بعضها الغموض او الابهمال.. الى ذلك فان ثمة تساؤلات كثيرة، ومما ما هو متصل بالواقع الراهن، قد يجب عليها هذا الكتاب بموضوعية وشمولية وعمق.